أسبينوزا

- حياته ومؤلفاته

ولد سبينوزا في عام ١٦٣٢م في أمستردام، هولندا، لعائلة برتغالية من أصل يهودي ، درس العبرية والتلمود في (مدرسة يهودية) من ١٦٣٩ حتى ١٦٥٠م. في آخر دراسته كتب تعليقا على التلمود. وفي صيف ١٦٥٦ نُبذ سبينوزا من أهله ومن الجالية اليهودية في أمستردام بسبب ادّعائه أن الله يكمن في الطبيعة والكون، وأن النصوص الدينية هي عبارة عن استعارات ومجازات غايتها أن تعرّف بطبيعة اللهّ. بعد ذلك بوقت قصير حاول أحد المتعصبين للدين طعنه.

كان سبينوزا تلميذًا موهوبًا، وتلقى تعليمًا دينيًا في مدرسة الجالية اليهودية بأمستردام، وعلى الرغم من تعمقه في دراسة التوراة والتلمود، إلا أنه لم يتم إعداده ليصبح كاهنًا يهوديًا كما اعتقد الكثير من كتّاب سيرته. وفي عام ١٦٦٠ حتى عام ١٦٦٣ أسّس حلقة فكر مع أصدقاءٍ له وكتب نصوصه الأولى. ومن عام ١٦٦٣ حتى ١٦٧٠ أقام في بوسبرج وبعد نشر كتابه رسالة في اللاهوت والسياسة سنة ١٦٧٠ ذهب ليستقرّ في لاهاي. في سنة ١٦٧٦ تلقّى زيارة من الفيلسوف الألماني "ليبنيتز". ويعتبر كتابه الأخلاق الذي الفه سنة ١٦٧٧ من أهم الكتب المؤثرة في الفلسفة الغربية، والذي عارض فيه ثنائية العقل-الجسد للفليسوف ديكارت. توفّي سبينوزا في ٢١ فبراير ـ شباط ١٦٧٧ وهو بعمر ٤٤ نتيجة أصابته بمرض رئوي بسبب غبار تنعيم العدسات.

ألف سبينوزا عدداً صغيراً من المؤلفات، وعلى الرغم من قلة مؤلفاته إلا أنها أحدثت تأثيراً واسعاً في الفكر الفلسفي اللاحق، وخاصة كتاب «الأخلاق». أول مؤلفاته كان «مبادئ الفلسفة الديكارتية» وأخرها كتابه الشهير «الأخلاق» الذي نشر بعد وفاته. والحقيقة أن كل فلسفة سبينوزا يجدها المرء في كتابه «الأخلاق»، أما كتابه الشهير الآخر «رسالة في اللاهوت والسياسة» فهو بحث نقدي في العلاقة

بين الدين والسياسة، والمؤسسة الدينية والدولة. ويتناول فيه قضية العلاقة بين العقل والإيمان، والسلطة الدينية والسلطة السياسية، وفيه يثبت أن التفلسف ليس خطراً على الدولة أو على الإيمان، وأن الحرية الفكرية والدينية ضرورية في دولة ديمقراطية حديثة، وقد نشره سبينوزا في ١٦٧٠ دون وضع اسمه على الغلاف، وقد اتبع هذا الأسلوب أيضاً مع كتاب الأخلاق سنة ١٦٧٧. وعلى الرغم من ذلك فإن كل من عاصروا سبينوزا كانوا يعلمون أنه هو مؤلف الكتابين. وآخر عمل انشغل فيه كان «رسالة في السياسة» سنة ١٦٧٦، ونشر بعد وفاته، وفيه يضع نظريته في الحقوق الطبيعية والمدنية ويوضح أفضلية النظام الديمقراطي والجمهوري، ويتناول فيه أنواع الحكومات المختلفة من أرستقراطية وملكية وديمقراطية، موضحاً أفضلية النظام الديمقراطي على غيره.

- **الله والطبيعة**

يعرف اسبينوزا ،الجوهر :- أنه ما هو في ذاته ومتصور بذاته ، أي ما معناه غير مفتقر لمعنى شئ آخر يكون منه .

ومن هذا التعريف يصل اسبينوزا الى النتائج التي يقصدها وهي :

١. أن الجوهر علة ذاته ، أي أن ماهيته تنطوي على وجودها ، وإلا كان الجوهر موجوداً بغيره .(وهذا هو الدليل الوجودي) ، وللموجود اللامتناهي (الله) قدرة لا متناهية على الوجود، وبالتالي فهو موجود بالضرورة.
٢. الجوهر لا متناه ، فلو كان متناهياً لكان متصلاً بجواهر أخرى تحده ، وكان تابعاً لها متصوراً بها لا بذاته.
٣. أن الجوهر واحد ، فلو كان هناك جوهران أو أكثر لكان كل جوهر يحد الآخر ولبطل أن يكون الجوهر جوهراً أي متصوراً بذاته.

وبالتالي فالجوهر موجود بالضرورة، أو واجب الوجود، سرمدي لا يكون و لا يفسد. أن الجوهر هو (الطبيعة الطابعة) أي الخالقة من حيث هو مصدر الصفات

والاحوال أنفسها. ولما كان هو الأوحد ، كان مطلق الحرية ، بمعنى أنه هو الذي يعين ذاته ، أما حريته فمرادفة للضرورة ، والفعل الضروري فعل ذاتي منبعث من باطن. فالجوهر ضروري والحقائق الأزلية ضرورية لم يفرضها بإرادته (كما يذهب اليه ديكارت) ، ولما كان اللامتناهي لم يكن شخصاً مثل إله الديانات ، وإلا لكان معيناً ، وقد سبق القول أن كل تعيين فهو سلب ، فليس له عقل و لا إرادة، أذ أنهما يفترضان الشخصية . وبالتالي فالجوهر لا يفعل لغاية ، ولكنه يفعل كعلة ضرورية ، فجميع معلوماته ضرورية كذلك ، وليس في الطبيعة شيء حادث أو ممكن إلا بالإضافة الى نقص في معرفتنا ، أي الى جهلنا في ترتيب العلل ،و لا يمكن أن يقال أن الله كان يستطيع ان يريد غير ما اراد .

ونحن نعلم ماهية الجوهر بصفاته ، والصفة (هي ما يدركه العقل من الجوهر على انه مكون لماهيته). والجوهر اللامتناهي حاصل على ما لا يتناهى من الصفات ، كل صفة منها تدل على ماهية سرمدية لا متناهية في جنسها. لكننا لا نعلم من الصفات سوى اثنتين ، هما (الفكر والامتداد) فلا تبدو لنا ماهية الجوهر الا في هاتين الصفتين او الصورتين (اللتين ينقسم اليهما الوجود كما عند ديكارت).

وتبدو كل صفة في احوال أو ظواهر. وتعريف الحال (هو ما يتقوم بشيء آخر ويتصور بهذا الشيء).فالأجسام احوال للامتداد نتصورها به و لا نتصوره بها كما تتوهم المخيلة ، أي ليس الامتداد معنى كلياً مكتسباً بالتجريد من الاجسام ولكن الاجسام اجزاء من الامتداد الحقيقي المعقول ، أو هي حدود فيه ، كما ان كل متناه فهو عدول اللامتناهي. اذ ليس الاختلاف بين الاجسام اختلافاً حقيقياً،بل هي جميعاً امتداد ، ولكنه اختلاف حالي عرضي ناشئ من ان الحركة تفصل في الامتداد اجزاء تكون منها اجساماً.

وفي المعاني او الافكار ، فأنها ترجع الى صفة الفكر . وفي هذه الصفة حال يحوي النظام الشامل الثابت للطبيعة، هذا الحال هو العقل اللامتناهي أو (فكرة الله) . وترتيب المعاني في الفكر صورة من ترتيب الاعيان في الامتداد ، واذا كان من

طبيعة الموجود المفكر ان يكون معاني مطابقة ، فمن المحقق أن معانينا غير المطابقة آتية من كوننا جزءاً من موجود مفكر وأن عقلنا مكون من معاني ذلك الموجود بعضها كامل وبعضها ناقص.

- الانســـــــان

الانسان : مركب من حال أمتدادي هو جسمه ، ومن حال فكري هو نفسه ،الجسم مؤلف من آلات ، والنفس فكرة الجسم اي فكرة موضوعها الجسم الموجود بالفعل ، فهي تبدأ وتنتهي مع الجسم ، وعلتها خارجة عنها تلتمس في أحوال أخرى من الفكر مقابلة لأحوال الامتداد التي هي علة الجسم ، والاحساس ظاهرة جسمية ، أما الادراك فظاهرة فكرية تقوم في تصوير النفس للإحساس وقت أنفعال الجسم به.

ويرى اسبينوزا أن حياتنا العملية تابعة الى حياتنا العقلية ، وتختلف بأختلافها . وبالتالي فالمعرفة تنقسم الى ثلاثة :

النوع الاول / وتنقسم الى معرفة نكونها عن الأشياء بواسطة الحواس ، وتتمثل فيها الأشياء جزئية مختلطة لا ترتيب فيها ، ثم معرفة سماعية تؤدي بنا الى تكوين فكرة عن الاشياء مشابهة لما نتخيله عنها. وهي معرفة استقرائية اي ناقصة .أي أن هذه المعرفة تقتصر على الحواس والمخيلة أي على افكار غير مطابقة ، وفيها نطلب الأشياء ونهرب منها لمحض الاشتهاء والكراهية ، لا لحكمنا بأنها خير أو شر ، بل أننا ندعو الشئ خيراً او شراً بسبب طلبنا اياه او كراهيتنا له. فلا حياة خلقية في هذا الضرب من المعرفة ، وانما كل ما هنالك عبودية للشهوات.

النوع الثاني / وهو ينشأ من وجود أفكار لدينا مشتركة بين جميع الناس ، وأفكار كافية عن خصائص الأشياء ، ويسميها معرفة بـ "العقل". وهذه هي المعرفة الاستدلالية (أي أستنتاج شئ من شئ اخر). وفي هذه المعرفة نعلم ان الطبيعة

خاضعة لقوانين كلية ، وأننا جزء من هذه الطبيعة ، فنهتدي بأفكارنا المطابقة ونصير فاعلين بعد ان كنا منفعلين .ذلك اننا ندرك بالعقل ان افراحنا واحزاننا نتائج القوانين الطبيعية ، فتصدر افعالنا عن طبيعتنا ونكون علتها الكاملة. وهنا نحصل على الفضيلة . والفضيلة الاساسية القوة أو الشجاعة تجعل الانسان حراً مستقلاً .

النوع الثالث / وهو " الحدس " ينتقل من فكرة كافية عن الماهية المطلقة لبعض صفات الله الى المعرفة الكافية لماهية الأشياء. اي معرفة استدلالية (مباشرة) وتقوم على العقل. وفي هذه المعرفة ندرك ذاتنا ، ليس كجزء من الطبيعة فقط ، بل ندرك ذاتنا صادرة عن طبيعة الله. ففي هذه المرحلة نرد السرور الذي يملأ نفسنا الى الله علة الحقيقة ومبدأ القوانين السرمدية . هذا السرور مصحوباً بفكرة الله هو محبة الله، والانسان هو العلة الكاملة لهذه المحبة، وهي خالصة لا يقابلها محبة من جانب الله ، لأن الله برئ من الانفعال.

٤.الدين والسياسة

يعد سبينوزا من المدافعين عن عدم المزج بين الدين والدولة بوصفها الضامنة لحرية الفكر والعقيدة، ونجد هذا في رسالته في اللاهوت والسياسة الذي يعتبر فيه سبينوزا أن الحرية لا تشكل تهديدا على سلامة الدولة. وتتمثل في حرية تأويل النص الديني حيث ليس لأحد الحق دون غيره في احتكار فعل التأويل؛ أي أن العمل الذي قام به سبينوزا موجه أساسا نحو كل سلطة كهنوتية.

و ينطلق نقد سبينوزا، بداية، من أن الكتاب المقدس كلام الله الذي يستهدف تعليم الناس السعادة الحقيقية، غير أن تفسيرات الناس ابتعدت عن الجوهر الحقيقي للدين، لذلك فإن النقد التاريخي لأسفار الكتاب يستهدف إظهار هذا الكنه.

يطلق على المنهج المتبع في دراسة الكتاب المقدس بإسم " النقد التاريخي" الذي يرتكز في عمله على فحص اللغة لفهم معاني الأسفار، و ضرورة العودة إلى السياق التاريخي الذي كتبت فيه الأسفار، وحياة مؤلفيها، وفكر المؤلف، والمرسل إليه، حتى يصير بإمكان المفسر أن يقف عند أي تحريف قد لحق سفرا من الأسفار.

ويمكن القول إن هدف النقد الذي قدمه سبينوزا هو استخلاص حقيقة الدين، فهو يعتبر أن الكنه الشبيه للدين: هو أنه مجموعة من التأملات والحقائق الفلسفية والعلمية التي تفسر الوجود، بينما الكنه الحقيقي للدين: هو أنه مجرد دعوة للتقوى وطاعة الله، بوصفها حب الله والإحسان إلى الغير، كقاعدة يجب أن توجه عمل الإنسان في حياته. وعلى هذا الأساس فإن معرفتنا بالله ليست بالضرورة معرفة " عقلية " " صحيحة " " منطقية "؛ بل إن " المعرفة الحقة " هي التي تستنج العدل والإحسان من الله، فليس خطأ أو كفرا أن يعرف الله تعريفا مخالفا لما هو عليه أو يجعله قديما أو حديثا، يعلم علما كليا أو جزئيا، صفاته عينها ذاته، فهي ليست بالضرورة، ولا تفيد شيئا؛ وإنما المؤمن الحقيقي هو الذي لا يهمه غير طاعة الله المتمثلة في العدالة والإحسان. ليست المعرفة، إذن، غاية في حد ذاتها؛ بل من أجل معرفة أن الله "عادل " و" رحيم " كمبدأ يوجه سلوكنا في حياتنا. وهي المعرفة التي تكون ممكنة بالنسبة للجميع على اختلاف أفهامهم ودرجات وطرائق إدراكاهم.

نستطيع أن نقول إن الهدف من التفصيل في الجوهر الحقيقي للدين هو: التمييز بين مجال الإيمان (الدين) والعقل (الفلسفة). لأنه إذا كانت الفلسفة تسعى إلى الوصول إلى الحقيقة فإن الدين لا يعلمنا غير الطاعة كشرط لخلاص المؤمن ، وهو ما يعني أن الدين ليس من العلم والفلسفة في شيء. لكن الدين لا معنى له إذا لم يكن يعلمنا احترام (الآخر)، واحترام حريته والقبول برأيه بدون تعصب أو تشدد عقائدي.

لقد بحث سبينوزا، إذن، عن مجتمع ديمقراطي قائم على الود والسلم دون خسائر، لذلك فسر الدين على أنه " أخلاق " تعلمنا التسامح واحترام الاختلاف والقبول به،

ونبذ كل صنوف الكراهية والحقد والتعصب للرأي التي يولدها احتكار الحقيقة والإيمان بأنها مقدسة ، ورفض كل تعدد في التأويل والإبقاء على القراءة الواحدة للنص الديني. غير أن هذه " الحرية الدينية " لن تكون مضمونة إلا داخل " الدولة العلمانية " وهو ما يفسر نقده " للدولة الدينية ".

- **نص فلسفي من كتاب رسالة في اللاهوت و السياسة – ترجمة د. حسن حنفي ، مراجعة د. فؤاد زكريا ، الطبعة الاولى ٢٠٠٥**

يقول في الفصل الرابع من كتاب رسالة في اللاهوت والسياسة تحت عنوان (ما هو الايمان ؟ واي الناس هم المؤمنون؟ تحديد اركان الايمان؟ واخيرا الفصل بين الايمان والفلسفة) يقول :

" أن هناك موجوداً اسمى يحب العدل والاحسان يلزم الجميع طاعته حتى يتم لهم الخلاص ، ويتعين عليهم عبادته بممارسة العدل والاحسان نحو الجار . وابتداء من هذا المبدأ نستطيع بسهولة أن نحدد باقي المبادئ